

التاريخ يكتب مرتين

عبد الكريم غلاب

السؤال الذي ألقيه في بداية هذا الحديث قد يكون متجاوزاً، فكثيراً ما ألقى، وكثيراً ما أجبت عنه. ولكن أهدف من وراء عرضه من جديد أن تكون الإجابة عنه مهدي إلى توضيح ما أقصد إليه من أن التاريخ يكتب مرتين.

السؤال المتجاوز : ما هو التاريخ ؟

إذا كان ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي في مقدمة المؤرخين المغربيين الذين حاولوا أن يحيوا عن السؤال بطريقة علمية نقدية تعتمد على تحكيم الفكر والعقل واستبعاد الرواية التي لا تعتمد على البحث العلمي، فإن مفهوم التاريخ أصبح علماً يستند إلى الفكر الفلسفي والتاريخي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي. وبذلك ازداد المفهوم تعقيداً قد يشفع للذين يضعون السؤال من جديد، وهم يعالجون التاريخ من زاوية قد تكون ضيقة. ولم يكن ابن خلدون بعيداً عن كل التنظيرات الفكرية والفلسفية والسياسية والاقتصادية في تحديد مفهوم التاريخ. بل إنه أضاف إلى تحديد المفهوم تنظيراً، كما سنرى، كتابة فلسفة التاريخ في إطار هذا المفهوم الواسع. وتلك هي «المقدمة».

ابن خلدون في الفصل الأول من «المقدمة» (ص. 291، ج 1، المقدمة، ط وافي) لم يجد صعوبة في تبسيط مفهوم التاريخ باعتباره فناً عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية فيقول ببساطة : «هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرتهم، والملوك في دولهم وسياستهم». ورغم ما في هذا التعريف من اختصار، على غرار اختصار تعريف العلوم والفنون عند الأقدمين تعريفاً منطقياً، فهو يحمل كثيراً من النظريات التي يمكن أن يشار إليها في أن التاريخ فن. وكلمة فن قد تكون أكثر عمقاً في تحديد مفهوم التاريخ من كلمة علم. ثم هو يجعل من التاريخ فن دراسة الماضي الذي يشمل سير الرجال الكبار، الأنبياء والملوك مثال لهم، ويشمل علم السياسة والأخلاق. وهما كلمتان مغرقتان في الشمولية والإحاطة. فعلم السياسة يشمل إدارة الدولة بكل ما تحمله الكلمة من سعة الإدارة الاقتصادية والاجتماعية. والأخلاق تعني السلوك البشري بكل الظروف المؤثرة فيه، ومنها الظروف الاقتصادية والعمرائية والبيئية والحضرية والبدوية...

ولكنه لم يكتف بالتعريف المبسط على عمقه، وإنما ذهب إلى تعميق المفهوم بالحديث عما يعتمد عليه التاريخ من معارف متنوعة وحسن نظر وثبت، مما يصل بالمؤرخ إلى الحقيقة ويبعد به عن المزلات والمغالط. ويسهب ابن خلدون، بعد هذه الكلمات المركزة، في نقد المنهج، وذلك ما جعله يتفوق على عصره بنقد منهج الاعتماد على النقل «الذي لا تحكم فيه أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني»، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذهاب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وبذلك يتجه بالتاريخ، منذ بداية «المقدمة»، إلى الاعتماد على علم الاجتماع : العادة، والسياسة، وطبيعة العمران، وأحوال المجتمع الإنساني...

ويسهب في نقد منهج النقل فيشير إلى كثير من الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون والمفسرون الذين اعتمدوا على بعض الملامح التاريخية في تفسير بعض الآيات، ويسفه بعض الأخطاء التي لا يقبلها العقل، فيجعل من العقل محكماً في فهم التاريخ، ولا يكتفي بإيراد الأحداث، المستحيلة عقلاً، التي ينقلها المؤرخون من التاريخ القديم، وإنما يشير كذلك إلى كثير من القضايا التي ذكرها المؤرخون في تفسير بعض الأحداث السياسية الكبرى مثل نكبة البرامكة، أو أخلاق بعض رجال العلم والسياسة، وبعض السيدات الفضليات.

وينتهي من هذا العرض، بعد صفحات كثيرة من مناقشة الأحداث المروية التي فضح زلات المؤرخين فيها لأنهم لم يعتمدوا على الفكر والمنطق العقلي إلى أن «التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل. فأما ذكر الأحوال للآفاق والأجيال والأعصار فهو أساس للمؤرخ تبنى عليه أكثر مقاصده، وتبين به أخباره (ص325، المقدمة).

ابن خلدون في رؤيته للتاريخ، و«المقدمة» جميعها تحدد هذه الرؤية الواسعة، ولم يكتبها إلا لهذه الغاية، أحاط بالمفاهيم التي حاول فلاسفة التاريخ المحدثون أن يعمقوا التفكير فيها مثل المقولة التي تقول : «التاريخ حقاً هو تاريخ البشر للبشر وبالبشر.» والتي تقول «إن التاريخ كوني في مضمونه وبشري في حفظه وذكره.» وهي تعني أن الكون هو الذي يكتب التاريخ. بمعنى أن التاريخ هو نتاج تفاعلات الكون، قد تكون تفاعلات طبيعية، مثل الخصب أو الإمحال والجفاف، ومثل الصحراء والجبال والأنهار والبحار، وهو ما نسميه اليوم تأثير الجغرافية والموقع الاستراتيجي في التاريخ. ولذلك فالتاريخ الحقيقي قد تكتبه الجغرافية أو الموقع، كما تكتبه الأحداث الكبرى، الإيجابي منها

والسليبي، كالزلازل أو الطاعون. ويشير ابن خلدون إلى الطاعون الذي حدث في عصره ببلاد المغرب وكان له أثر في صياغة التاريخ. ويأتي الإنسان بعد ذلك ليكتب هذا التاريخ ويسجل أحداثه ويُفلسف مفهومه. وهذا ما يشير إليه فلاسفة التاريخ المحدثون أيضاً حينما يقولون : التاريخ المذكور هو مجموع العوارض والطوارئ التي تستحق أن تحفظ. وكما تكتب الأحداث الطبيعية الكبرى التاريخ تكتبه الأحداث الكبرى التي يصطنعها الإنسان : الحروب مثلاً أو المصالحات والمعاهدات والاتفاقات، سواء كانت عسكرية أنهت الحرب بمرحلة سلام، فالسلام من الأحداث الكبرى التي لها أكبر ضلع في صياغة التاريخ وكتابته، أو كانت الاتفاقات والمعاهدات اقتصادية أو ثقافية. فهذه أحداث مهمة تكتب التاريخ، ليس تاريخ شعب فحسب، ولكن تاريخ دول وشعوب تشملها هذه الاتفاقات والمعاهدات.

وكما تؤثر الأحداث الطبيعية التي يصطنعها الإنسان في صياغة التاريخ وكتابته تؤثر الأحداث الفكرية والسياسية منها والاقتصادية والاجتماعية. كان تاريخ الإنسانية قبل قرنين، أو ثلاثة يسير في اتجاه خطير يطبعه الصراع بين الدول والشعوب، والصراعات الداخلية بين شرائح المجتمع الواحد والشعب الواحد. وقدّمت هذه الصراعات للإنسانية عالماً مختلفاً فكرياً وسياسياً واقتصادياً، ومختلفاً في النظرة إلى المستقبل، وإلى العلاقات الدولية الإنسانية منها والعلمية والسياسية والاقتصادية. ولكن جهود المثقفين والمفكرين الاجتماعيين والأخلاقين والسياسيين أثمرت في إبراز شخصية الشعوب وأهميتها وحقوقها الإنسانية وكرامتها البشرية وحققها في الحياة الأفضل. فكانت القوانين التي تؤطر هذه الشخصية وتؤكد هذه الحقوق وتبرز أهمية القضاء وحرمة. وكانت الدساتير التي تفصل السلط، وتحدد

العلاقات بين المشرعين والمنفذين والقضاة الحاكمين. وكانت الديمقراطية التي أصبحت مذهباً نماء الفكر والممارسة العملية. فتحقق به السلم بين الشرائح الاجتماعية، ودفع كل منها لخدمة الوطن في الإطار المحدد له. وبذلك بدأ التاريخ الوطني والعالمي يكتب من جديد بعقلية جديدة وعلى أسس جديدة. وبتعبئة شعبية كاملة، لم تكن هذه الديمقراطية - وما تزال - تخلو من أخطاء، ولكن إيجابياتها هي التي كتبت تاريخ الشعوب والدول والقارات في القرون الثلاثة الأخيرة.

فهذا حدث فكري غير الحياة، وكتب تاريخاً جديداً لا ينتمي لتاريخ ما قبل الثورة الديمقراطية، يقوم على أساس الحرية الفردية والجماعية والليبرالية الاقتصادية، وتقديس دور الفرد في الدولة، واعتبار الشعب صاحب السيادة المطلقة يمارسها مباشرة وبطريقة غير مباشرة بانتخاب من ينوب عنه، والمحافظة على حقّه في الرقابة والرفض عن طريق حرية القول والكتابة والإضراب والمظاهرة، وعن طريق التصويت الحر المضمون في الانتخابات.

وكتابة هذا التاريخ لم تكن نهائية ولم تخل من عثرات، كان من الممكن أن تحوّل مجرى الحياة نحو كتابة أخرى تعتبر ارتداداً أو رجعة عما حققته الإنسانية بالاتجاه الديمقراطي. أو هي كتابة أخرى من منظور آخر لتاريخ الإنسانية، لم يكتب له أن يبرهن عن صلاحيته لكتابة جديدة لتاريخ الإنسانية.

آخذ نموذجين من هذه العثرات :

النموذج الأول : تجلّى في الاشتراكية العلمية الماركسية التي تنبذ كل تفكير إلهي أو فكري، وتعتمد الرؤية المادية للحياة وبذلك كانت النظرة إلى المجتمع هي ما يستطيع هذا المجتمع أن ينتجه، لا ما يستطيع أن يفكر فيه أو

يعتقده. وبذلك يكون الاقتصاد هو الذي كون المجتمع. والطبقة المنتجة (العمال على الأخص) هي الطبقة التي تصنع التاريخ. وتذهب إلى أن الأحوال الاقتصادية التي يحيا الناس في ظلها أعظم شأنًا وخطراً من سائر أحوالهم الأخرى. وبذلك تكون البيئة الاقتصادية في المجتمع هي العامل الحاسم. هذه النظرة المادية أو الاقتصادية هي التي تتحكم في مصير التاريخ. وبذلك يعلن ماركس أن الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم. كما يؤكد أن العلاقات الإنتاجية التي يستغل الناس بظللها، والتي تعطي تاريخهم شكله وصورته، إنما يستغلون بظللها بمعزل عن إرادتهم. وبقدر ما تعطي الماركسية من أهمية للإنسان، وتجعله الهدف من الحياة، بقدر ما تجعله عبداً مسخراً لحاجاته الاقتصادية وليس لإرادته أو أفكاره، ثم تجعله مسخراً لطبقته. فالطبقة متحركة في سير الحياة، والصراع بين الطبقات أساس بناء المجتمع الذي تصبح فيه الطبقة البروليتارية سيدة المجتمع والدكتاتور فيه.

فهذه رؤية تتقن وتعلم (من العلم) بعض الرؤى القديمة التي كانت تجعل لسلطة من السلط حكمة أو مالية أو اقتصادية أو عسكرية، مركز السيادة والسيطرة. ولكن هذه الرؤية الماركسية أكثر قرباً من مصلحة الإنسان في نجوعه، ولو وصلت إلى هذه المصلحة عن طريق القتال، أو صراع الطبقات، أو سيادة طبقة منتجة على الطبقات التي لم يكتب لها أن تكون منتجة إنتاج البروليتاريين. ومن ثمة يصبح الإنسان آلة تحقق الإنتاج لمصلحة المجموع. والدولة هي صاحبة السيادة على الإنسان نفسه، لأنها التي تمكن للطبقة أن تسود، وتمكن لها الطبقة أن تحكم. وبذلك يتكون مجتمع جديد يختلف عن المجتمعات التي عاشت في ظلها الإنسانية منذ كانت.

هذه المحاولة التي بدأت فلسفية ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر وانتهت عملية في نهاية الحرب العالمية الأولى أي في سنة 1917 كانت كتابة جديدة للتاريخ الفكري - الإنساني على نحو جديد. وإذا كانت محاولة باهرة في أخلاقيتها واعتبارها للإنسان، فقد كانت صادقة في تنكرها لحرية الإنسان والمجتمع والعودة إلى سيادة الدولة، التنكر للحرية الفكرية والعقدية وحرية الممارسة. وبذلك بدا واضحاً التناقض في كتابة التاريخ، الذي استهدفه هذا الاتجاه، بين إعطاء الإنسان القيمة الكبرى والاعتبار الأسمى، وبين تجريده من كل مميزاته التي سعى طيلة حياته لتحقيقها ومنها الحرية في الفكر والممارسة، وفي السلوك الحياتي على العموم.

هذا النموذج انهيار بالنيهار الشيوعية في بداية التسعينات من القرن العشرين. ومع ذلك ساهم بحظ كبير في كتابة جزء كبير ومهم من تاريخ العالم فكرياً على مدى قرن ونصف وعملياً على مدى سبعين عاماً. وجه التاريخ السياسي والاقتصادي، عملياً لأكثر من مليار ونصف مليار من سكان المعمور، وتأثيرياً في أجزاء مهمة من القارات الخمس، سواء منها التي تعاملت مع هذا الاتجاه بإيجاب، أو التي تعاملت معه بالسلب. وسواء في فترات السلم أو فترات الحروب الطاحنة، أو في فترة ما سمي بالحرب الباردة.

لم يكن هذا النموذج حدثاً عابراً في التاريخ الإنساني، رغم انهيار تجربته العملية، ولكنه كان منعطفاً مهماً في كتابة تاريخ الإنسانية، ما نظن أنه سيتخلّى عن التأثير في هذا التاريخ بنفس السرعة التي انتهت بها التجربة العملية التي فشلت لأسباب موضوعية، ولعلها تاريخية أيضاً، أي نابعة من مسيرة التاريخ، الذي قد ينحرف وقد يستقيم، لأنه كائن حي ذو مسؤولية لن يتخلّى عنها.

النموذج الثاني، كان أيضاً ردة إلى الوراء، تجلى في يقظة الفاشية والنازية لأسباب موضوعية أيضاً أفرزها انحراف التاريخ، الذي كتبه التطورات الفكرية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، كما ساهمت في كتابته روااسب الماضي. الحرب الأولى فجرت النموذج الأول لأن الهزيمة كانت مناسبة لبلورة التاريخ النظري للاشتراكية العملية، إلى تاريخ عملي كتبه البلاد التي اعتنقت المذهب بين الحربين وبعد الحرب الثانية. والحرب الأولى أيضاً فجرت النقمة على المنتصرين في شكل الثورة على الأنظمة الديمقراطية، بل على الفكر الديمقراطي. ولم تكن النازية ولا الفاشية غير ذات مرجعية فلسفية وفكرية، فإن الفلسفة الألمانية في آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت تنزع إلى الإنسان الأعلى، وإلى الصراع مع الأضعف لتحقيق البقاء للأقوى والأصلح. وذلك ما مهد الطريق لكتابة تاريخ عملي يعتمد على مذهب فاشي أو نازي ويسعى للانتقام لهزيمة الحرب الأولى، فكتبت ألمانيا جزء من التاريخ الدموي، الذي سعى إلى انحراف مسيرة التاريخ. وكان الفشل نصيبه.

ولكن هذا النموذج السلبي لم يكن غير ذي أثر إيجابي في تحويل مجرى التاريخ وكتابة فصل جديد منه، انتهت فيه الإمبراطوريات الواسعة، وتحمرت كثير من الشعوب انطلاقاً من مقولة الدفاع عن حرية الشعوب. ولكن كل أثر إيجابي يصاحبه أثر سلبي قد يكون خطيراً. إن التحول الذي ضمن تحرير الشعوب في آسيا وإفريقيا على الأخص من هيمنة الإمبراطوريات الكبرى، هو الذي حول مجرى تاريخ الشرق العربي بإيجاد إسرائيل. ووجودها يكتب فصلاً جديداً في التاريخ العربي والإسلامي، بل التاريخ الإنساني، لأن قيما جديدة نشأت لتخلخل مفهوم التاريخ الحديث

في المنطقة، ولتعيد فصولاً من التاريخ القديم الذي كان يكتب تاريخ شعب على أنقاض شعب آخر، ودولة على أنقاض دولة. وليقعد مفهوماً جديداً للدولة القائمة على العرقية والمذهبية والدين المنغلق بدلاً من الوطنية والقومية والإنسانية.

هذه الأمثلة تسمح لنا بأن نشير إلى بعض الحقائق عن التاريخ الذي يكتب ثم يكتب مرات ومرات، حتى يزعر ذلك ثقتنا في ماهية التاريخ وحقيقته ومدى قدرته على أن تتم الفائدة منه لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا كما قال ابن خلدون. وكما عبر أحد فلاسفة التاريخ المحدثين: «إن الحوادث لا تذكر، ولا تعلق في الذاكرة إلا إذا تحولت هي نفسها في حال حدوثها إلى عبر».

فما هو التاريخ الذي يمكن أن يصبح عبرة؟ بل ماهو التاريخ الحقيقي لأي شعب؟ لأية دولة؟ لأية حضارة؟ ونستطيع أن نواصل التساؤل لنصل إلى التشكك في ماهية التاريخ: هل هناك تاريخ يكتب نفسه بصدق حتى يصبح تاريخياً؟

هذه الأسئلة المتشككة في ماهية التاريخ وحقيقته وأهميته وقدرته على أن يقدم لنا العبرة تنقلنا إلى أسئلة أخرى مرتبطة بها، وقد تكون أقل سوداوية منها مثلاً بالنسبة للمغرب: هل تاريخ المغرب هو الذي كتبه المغاربة الأولون وهم يقاومون الغزو القرطاجي والروماني والوندالي؟

هل هو التاريخ الذي كتبه المغاربة وهم يصارعون العرب؟ أم الذي كتبه وهم يتعاونون مع العرب على تدعيم دولة الإسلام، ونقل الإسلام إلى الأندلس؟ أم هو التاريخ الذي كتبه وهم يؤسسون دولة المرابطين بكل قيمها الفكرية

والإسلامية والفقهية أم هو الذي كتبه المغاربة وهم يؤسسون دولة الموحدين بكل فلسفتها التوحيدية الصارمة وتطلعاتهم إلى تدعيم الإسلام في الأندلس وتكوين الإمبراطورية الواسعة حتى ليبيا شرقاً والسودان الغربي جنوباً ؟ أم هو التاريخ الذي كتبه وهم يحتضنون العلوم والآداب والفنون على عهد المرينيين ؟ أم هو الذي كتبه وهم يدفعون عنهم مرة أخرى الغزو الخارجي في وادي المخازن، كمثال على عهد السعديين ؟ أم هو الذي كتبه على عهد العلويين ؟ أم الذي كتبه وهم يقفون صامدين في كثير من هذه المراحل في وجه الخلافة الإسلامية منذ عهد العباسيين حتى عهد الأتراك العثمانيين ؟ ثم هل هو تاريخ الصراع القبلي والصراع من أجل السلطة أو من أجل المذهب في الإمارات الخارجية، وفي عهد الدويلات الصغرى التي لم تعد أي منها قبائل كبرى أو صغرى تناصرها لتهزم خصومها، رجالاً متزعمين وقبائل منافسة ؟ أم هو التاريخ الذي انهارت فيه السلطة وبقي الشعب عارياً ونهباً للاحتلال الفرنسي والإسباني ؟ هل هو تاريخ العهد الاستعماري ؟ أم تاريخ العهد الاستقلالي ما بعد عهد الاستعمار ؟

هذه الأسئلة وغيرها كثير يمكن أن تنطبق على تاريخ الشعوب التي كان لها تاريخ وكانت لها حضارة. الصين مثلاً، هل تاريخها هو ما كتبه شعبها أو شعوبها في عهد الشنغ وفي عهد التشاور في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد ؟ أم تاريخ عهد الافيون في القرن الماضي ؟ أم هو تاريخ الصين الشيوعية التي استطاعت في منتصف القرن العشرين أن تحوّل مجرى التاريخ في دولة المليار إنسان بنوا تاريخهم الطويل على تقديس الإمبراطور ومجموعة من العقائد الدينية المطعمة بالأساطير والخرافات إلى المادية الماركسية اللينينية ؟ ويتحولون من تقديس الإمبراطور إلى تقديس الزعيم والتعلق بحكمة القائد ؟

وتاريخ مصر هل هو التاريخ الفرعوني بآلهتها العظام : أوزيريس وآمون وآمون رع منذ الألف الثالث قبل الميلاد ؟ هل هو تاريخ الشعب الذي تنقل من الصعيد إلى الدلتا محاذياً النيل بيني أسس الحضارة الزراعية والعمرانية والدينية والفنية أينما توقف ليتجاوب مع ملوكه الذين يصبحون آلهة يعبدون ؟ أم تاريخ ملك كأخناتون الذي فكر في نقل العبادة إلى الله الحقيقي، بدلا من الآلهة الأسطوريين ؟ هل هو تاريخ مصر الفرعونية أم مصر الإسلامية أم مصر الحديثة الذي بدأه محمد علي بكل المفاهيم المضطربة للحدث فيها ؟ أم هو تاريخ مصر الثورة التي لم تهتد إلى مفهوم حقيقي للثورة، رغم أنها حررت مصر من الرتابة، ومن تركز الاستعمار في منطقة قناة السويس ؟

مثل هذه التساؤلات يمكن أن نلقيها عن تاريخ الآشوريين والبابليين في بلاد ما بين النهرين (العراق) وعن تاريخ سوريا الفينيقية وعن تاريخ الهند وتاريخ اليونان وعن تاريخ روما وتاريخ بلاد فارس... وغيرها كثير، كلها شعوب كتبت تاريخها الطويل. لم يقف التاريخ في لحظة، ولا اندثرت الحضارة، ولو أنها تراجعت بفعل ظروف ما يسميه ابن خلدون عمر الدولة، وهو كعمر الأشخاص.

نكتفي بهذه الإشارة إلى الشعوب التي بنت الحضارات القديمة لنلمح في عجلة إلى بعض الشعوب التي تبني الحضارة الحديثة : أوروبا مثلاً قد تكون من بين القارات الحديثة نسبياً، ولكن التاريخ فيها تحرك بأسرع مما تحرك - نسبياً كذلك - التاريخ في القارات الأقدم. فهل التاريخ الذي كتبه الشعوب الأوروبية في عصر النهضة ابتداء من القرن الخامس عشر هو تاريخ ما قبل النهضة يوم كانت شعوبها شتاتاً كما لو كانت قبائل متفرقة ممزقة ؟ هل تاريخ

أوروبا بداية النهضة هو تاريخ أوروبا عصر الأنوار بكل ثوراته الفكرية والفلسفية والعملية والصناعية كما برزت في القرن الثامن عشر ؟ ثم هل تاريخ أوروبا الكنسية والإمارات والإمبراطوريات هو تاريخ الثورات المتعاقبة التي انتهت بالعلمانية الدينية والديمقراطية السياسية والاجتماعية ؟ وهل تاريخ أوروبا ما قبل الاكتشافات هو تاريخ أوروبا ما بعد اكتشاف القارات وامتداد الاستعمار، وما حققه من ثورة اقتصادية عارمة ؟ وهل تاريخ ما قبل الحرب العالمية الأولى هو تاريخ ما بعد الحرب الثانية ؟ هل كل هذا التاريخ يوازي تاريخ نهاية القرن العشرين التي أسرع بتوحيد أوروبا كقارة، كما أسرع القرن الثامن عشر بتوحيد الإمارات في دولة واحدة ؟ أوروبا الآن تبني قارة جديدة فهل هذا هو تاريخ أوروبا التي شهدت في هذا القرن حربين مدمرتين كان يمكن أن تنهيا الحضارة - فيما يظن - لو أسرع ألمانيا إلى صنع القنبلة الذرية. وما كان يمكن أن ينقذها من الهزيمة التي اتضحت معالمها بعد السنتين الأوليين من الحرب إلا القنبلة الذرية.

وهذه أمريكا تحاول أن تبني العالم الجديد على نحو ما تريده، تمهد له العولمة التي تمتد من الاقتصاد إلى السياسة ثم إلى الفكر والثقافة، ليكتب التاريخ نهايته على نحو ما يفكر فوكوياما والذي يرى أن وصول العالم إلى النظام الرأسمالي الليبرالي الشامل، ربما شكل المرحلة النهائية في التطور العقدي للجنس البشري، وبالتالي يصبح هو نظام الحكم الأمثل. والوصول إلى هذا النظام هو نهاية التاريخ.

هل التاريخ الذي كتبه الشعوب وهي تتحسس معالمه في تجاربها البشرية السياسية والاقتصادية والعلمية والفنية والعسكرية، هو التاريخ الذي

يكتبه القياصرة الجدد في أمريكا والمخططون الاقتصاديون الجدد في أوروبا والمنتجون الصناعيون الجدد في آسيا ابتداء من اليابان ؟

أعتقد أن التاريخ يكتب من جديد للمرة الألف وليس للمرة الثانية.

وواضح أنني في هذا التصور لا أهتم بموضوع المؤرخ الذي يصنع التاريخ، بحسب ما يحفظه من أحداث، أو ما يبحثه من وثائق، أو بحسب تصوره للماضي الذي يستحضره في ذهنه أو بشواهد المروية أو المكتوبة أو المنحوتة. فهذا المفهوم المدرسي للتاريخ لم أهتم به في هذا التصور.

وواضح أيضاً أنني لم أهتم بفهم التاريخ حسب رؤية فلسفية أو إسلامية أو مسيحية أو ماركسية. بل لا يهم التاريخ كماض حاول المؤرخون وفلاسفة التاريخ أن يكتبوه أو يفكروا فيه باعتباره جزءاً من الحاضر، فلا حاضر بدون ماض. بل يذهب بعض هؤلاء المفكرين في التاريخ إلى أن الإنسان نفسه تاريخي، لا يهم هذا بمقدار ما يهم أن الإنسان لا يكتب تاريخاً واحداً، وإنما يكتب التاريخ، ثم يكتبه من جديد، قد ينقض ما غزله ليغزل الجديد، فيحقق ذاته، كما هي في اللحظة التي يصنع فيها التاريخ ولا أقول يكتبه فقط.

فالتاريخ إذن هو ما يكتبه الإنسان نفسه. والمؤرخ هو الشعوب التي تصنع التاريخ وليس المسجل أو المحلل أو المفلسف أو الباحث بين الوثائق والأطلال والعاديات والآثار والرسوم والنحوت.

وأؤكد على أن الشعوب هي التي تصنع التاريخ خاصة حينما تتحلل من النظرة الضيقة للتاريخ التي ترى أن التاريخ هو العمل السياسي أو الحكم

الإداري أو قيادة المعارك. الشعوب التي تفكر والتي تزرع وتغرس وتصنع - ابتداء من صناعة الفخار والطين حتى صناعة الإلكترونيات - هي التي تصنع التاريخ وتكتبه.

ومن المؤسف أن المؤرخين في غالبهم يغفلون عن دور هذا المؤرخ الكبير - الشعب - لينسبوا صناعة التاريخ لكبار العسكريين وكبار الأباطرة وكبار السياسيين والإداريين. غاب الكاتب الأول عن الميدان. واهتم المؤرخون العاديون بالحدث المروي والمحفوظ في الذاكرة أو في الوثيقة، واهتم فلاسفة التاريخ بتثقيف الألفاظ وتحليل المضمون والمفهوم، واهتم الاقتصاديون بالأرقام. ونسي الجميع الصانع الأول الذي نصب وعرق وسالت دماؤه وفكر وأبدع ليجعل من التاريخ حضارة تنعم بها الإنسانية.

إذا جاز القول بأن تاريخ الإنسان هو الإنسان نفسه، وهي مقولة تنبني على مجازفة فكرية، فإن المنطق قد ينتهي إلى أن إنسان تاريخ اليوم غير إنسان تاريخ الأمس. ولذلك فتاريخ المغرب في عهد ما قبل الإسلام هو غير تاريخه ما بعد الإسلام، هو غير تاريخه في عهد الدويلات، أو في عهد الإمبراطورية، أو في عهد الانهيار، أو في عهد الحماية، أو في عهد الاستقلال. وتاريخ الصين في عهد الإمبراطورية، هو غير تاريخها في النصف الثاني من هذا القرن. وتاريخ مصر الفرعونية هو غير تاريخها في عهد الثورة، وتاريخ فرنسا في عهد ما قبل الثورة هو غير تاريخها في عهد الإمبراطورية الاستعمارية. الأمثلة كثيرة.

هناك إذن تواريخ الأمم والشعوب وليس تاريخاً واحداً.

ثم إن هذا الاتجاه يفرض أن نميّز بين التاريخ السياسي لأي شعب وأية دولة، والتاريخ الحضاري : الاقتصادي والاجتماعي والفكري والعلمي والتكنولوجي، اليابان اليوم هي غير يابان ما قبل الحرب. شيء ما غيره تدمير هيروشيما. الإنسان الذي بنى تاريخ الأمس ليس هو الذي يبنى تاريخ اليوم.

هل هذا يسلمنا إلى تغيير رؤيتنا للتاريخ ؟ وبالتالي التكرار للتعريفات المدرسية للتاريخ والتأريخ ؟ وسواء عدنا إلى تعريف ابن خلدون، أو عدنا إلى ما يستخلص من أبحاث كولينجود من أن التاريخ هو مجموع أحوال الكون في زمان غابر ومجموع معلوماتنا حول تلك الأحوال، أو على قول آخر هو تاريخ البشر للبشر، سواء تعلق الأمر بالحدث الذي هو موضوع التاريخ، أو تعلق بدراسة المؤرخ للحدث الذي هو معنى التأريخ. (كما يفصل ذلك قسطنطين زريق).

قلت : هل ما قدمته من تأملات تسلمنا إلى تغيير رؤيتنا للتاريخ ؟

أعتقد ذلك.

